عشائر الشام

— ٣ —

منازل البدو — ان الصحراء الشاسعة الممتدة ما بين الدجلة والفرات وشرقي المعمور من ارياف الشام في طول يبعد نحو ٤٠٠ — ٦٠٠ كيلو متر عن جبال البلقاء وحوران وقلمون والشومرية والبلعاس والاحص والشبيث تعرف عندالجغرافيين باسم (بادية الشام) وعند عشائرنا باسم (البرية) أو (الشول) والكلمة الثانية تركية بمعنى بادية . وهذه الصحراء هي منازل البدو ومسارحهم يضربون في ارجائها سعياً وراء الكلأ والماء والدفء لسائمتهم ، وهي تنقسم الى عدة مناطق لها عندهم اسماء خاصة منهـا (الجزيرة) ما بين الدجلة والفرات وهي تقابل (الشامية) اي السهول الممتدة في غربي الفرات و (الشنبل) وهو ما وقع شرقي ارياف حمص وحماة وغربي طريق تدمر والرقة . وقد اخذوا هذه الكمة من مكيال الحبوب المسمى شنبلاً والمستعمل في مدن حلب وحمص وحماة وهو يزن نحو ٢٢٠ كيلوغراماً في حمص ونحو نصف ذلك في حلب . و (الحماد) وهو القفار التي تمتد جنوبي وشرقي ديرة الشنبل حتى حدود نجد . و (الحارّة) أو حرة الراجل وهي منطقة الاوعار البركانية التي تمتد جنوبي وعرة الصفا وشرقي جبل الدروز وتشقها الآن انابيب البترول الذاهبة من العراق الى حيفا . و [الجوف] واحة منخفضة بعد وادي السرحان وفي اقصى الشمال الغربي من بقاع نجد ، وهي ذات موقع جغرافي مهم جداً لوجودها في المنتصف مابين الفرات وسكة الحجاز وبين جبل شمر وجبل الدروز وهي على ممر القوافل والقبائل الى الشام من أقدم العصور .

وقد قسم الافرنسيون والانكليز الحماد الى قسمين بينهما خط وهمي يبدأ من قرية امتان في جنوبي جبل الدروز ويسير في خط سوي حتى بلدة ابي كمال على الفرات وهذا الخط يفرق بين حدود الشام وشرقي الأردن والعراق . ويسود هذه البادية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اقليم صحراوي ، شديد الحر في الصيف شديد البرد في الشتاء وهواؤها جاف جداً وأمطارها قليلة وفصل الشتاء فيها قصير أما أرضها فمنبسطة كل الانبساط تتخللها في بعض الاماكن تلمات وأودية صغيرة وآكام صخريه بازالتية أو كلسية .

وليس في هذه البادية اثر للرمل اللهم إلا شيء في شرقي تدمر حول بعض الاودية والسباخ . واما تربتها فكلسية صفراء هشة مختلطة بقسم غير يسير من التراب النباتي . فاذا نالها نصيب من المطر اهتزت وربت وأنبتت من الاعشاب والانجم الخاصة بالبوادي . وهذه قصيرة العمر وصغيرة القد ، اخصها الروثة والرمث والشيح والرتم والحمض والقيصوم والنصي والديدحان والصر والربيان والحمصان والخافور والقبا وغيرها . وافضلها واحبها للابل ما كان فيه ملوحة وحموضة كالروثة والرمث والنصي . لاجل هذا يخطيء من يظن ان بادية الشام فلوات رملية كدهناء نجد أو تهامة الحجاز واليمن ، بل هي أشبه بالسهوب المعشوشبة التي في انحاء روسية الجنوبية مما يدعوه الاوربيون Steppe .

والذي يجذب البدو نحو هذه البادية غير الاعشاب والانجم المذكورة هو [الخبرات] جمع خبرة . وهي البحيرات الوقتية التي تحصل في القيعان والوهدات حيث تجتمع المياه من الأمطار السائلة من المنحدرات والتلعات المحيطة بها . وأشهر هذه الخبرات خبرة الزرقا وخبرة مرقية وخبرة الهجم وخبرة الصيقل وقد تسمى هذه بحيرة الصيقل وخبرة ملحم وغيرها : وتبلغ مساحة بعضها عدة مئات من الهكتارات . يفد اليها البدو بقطعانهم فيعلون وينهلون . وبعد هذه الخبرات الى الشرق تحدث في منحدرات جبل عنزى المائلة نحو الشرق اودية تسيل باتجاه الفرات يستقي البدو منها أيضاً كوادي المياه ووادي سوى ووادي حوران ووادي عانج وغيرها . وهذه الأودية منقطعة الجريان لا تسيل الا حين هطول الأمطار الغزيرة ، فهي تنظم حركة مياه البادية وسيولها وتصرفها نحو الفرات . واذا انقطعت تحدث غدراناً واذا فاضت تحدث بعد انصرافها غيطاناً خضرا تسر العيون في تلك الفيافي القفراء .

وفي هذه البادية عدة جبال يسيرة العلو ، تكتسي قممها بالثلج في السنين الباردة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتجود فيها مراعي الابل والغنم ، تنزلها عشائر انشمال في الشتاء منها البلعاس وابو الضهور وشاعر — والشطب والعمور والمراه والابيض والابورجمين والضاحك والاصابع والمنشار والبشري — وفي الوسط على الحدود الشامية العراقية جبل التنف ، وفي الجنوب جبل عنزى وجبل لاهة . وفي البادية ايضاً من المناهل ذات البئر والآبار المتعددة التي عمقها ١٠ — ١٥ متراً ومياهها ما بين اجاج وعذب ، اشهرها في الشمال الطيبة والكوم وام شريدي وامسربة وتوينات والكديم وقطقط وابوفياض وابواليتل والهباة وعين البيضاء والسبع آبار . وفيها من القرى تدمر وأرك والسخنة داخل حدود الشام والرطبة داخل حدود العراق . وقد اخترقها أخيراً خطان لأنابيب النفط قادمان من كركوك تتجه الأول نحو طرابلس والثاني نحو حيفا . وفي كل منهما عدة محطات كبيرة محصنة بالمخافر ومزينة بدور ومبانٍ جميلة تحوي كل أسباب الرفه من ماء و كهرباء وحدائق وغراس ، مما صير هذه المحطات شامات في وجنة البادية . ويخترق البادية أيضاً طريقان للسيارات أولهما قادم من دمشق والثاني من حيفا يجتمعان في الرطبة ويذهبان متحدين نحو بلدة الرمادي على الفرات فبغداد . وقد تم في يومنا تعبيد طريق حيفا — الرطبة ولم يتم ذلك في طريق دمشق بعد .

اذا حل فصل الخريف وبدأت امطاره بالهطول [ايلول — تشرين] يشرع البدو بنجعتهم نحو الشرق ، وهم يسمونها [تشريق] فيظعنون رويداً رويداً ويبعدون كلما اعشوشبت أرض البرية وزخرت الآبار والمناهل بالماء . واذا جاء فصل الشتاء وهمت امطاره بغزارة وكانت السنة غير قارسة البرد تغدو البادية بقعةً بهجةً وتكتسي بعشب ترتع فيه الابل والغنم وتلد بكثرة فيعلو ثغاء الحملان ويدوي صوت مخض الالبان وتمتلئ الخبرات بالمياه الزاخرة فترتوي منها سوائمهم مهما كثر عددها . وينساب البدو ويوغلون في نجعتهم ويطيلون امدها ماطاب لهم المقام ويعم الفرح مضاربهم ويطفح البشر والاغتباط على وجوههم . ويعكف بعضهم وقتئذ على الصيد بقصد اللهو والأُنس . والصيد متيسر في البادية لوفرة الغزال والأرنب والحجل والحبارى وغيرها . ويتخذون لذلك ويربون الطيور الجوارح والكلاب السلوقية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن ما ان يقبل شهر نيسان أو ايار وتنقطع الأمطار حتى تجف تلك الأعشاب وتقل مياه تلك الخبرات وما ان يشتد الحر حتى يكتسح بسيط البادية ويربد وينقلب كئيباً يبعث الانقباض ، وتبرز أرض الجوع والعطش التي لا يظهر فيها نبات ولا تسيل أودية . لهذا يشرع البدو بالتغريب أي بالرحيل والانتقال نحو الغرب منذ غرة آذار يسيرون زرافات الى حيث يجدون مجالاً للرعي ومياهاً للشرب في العيون اوالآبار المعروفة لديهم . وحينما يحل فصل الربيع في [المعمورة] اي في المناطق الآهلة بالسكان من أرياف الشام يقتربون منها . وحينما ينتهي هذا الفصل يشرعون بتخطي حدود الأراضي المزروعة ويصلون الى المواقع التي تكون قرب نهر أو عين ويهيئون بذلك لأنفسهم منطقة كافية لرعي سائمتهم ويضربون خيامهم فيها لمدة موقتة في انتظار انتهاء موسم الحصاد كي يقصدوا بعده مراعي جديدة .

تحضر البدو . — لابد أن يفعل الزمن فعله في هؤلاء البدو ويخضعهم الى ماجرى على اسلافهم الذين تركوا عيش البداوة وانصرفوا للاستقرار والتحضر . مجتازين ادوار الطبقة الاولى فالثانية فالثالثة نقول هذا على ما نعلمه من كره البدوي للعمل وعزوفه عن الحرث والكرث وامتهانه لها . فقد كان في الماضي القريب يعتمد على الغزو ويعده بعد الرعي مرتزقه الطبيعي ويهتبل الغرر من فوضى الأحكام وضعف السلطان ليستبيح حمى المعمور ويتنمر في وجه الضعيف ويستدر المكاسب من أي نبع كان . إلا ان هذه الفرص لم تعد تواتيه فسبيل الغزو قد انقطع بفضل السيارات المسلحة بالرشاش وبتجول دوريات الهجانة داخل الحدود العراقية والاردنية والشامية . ولم يعد الجناة يفلتون الا فيما قل .

وانقطاع الغزو وشيوع سيارات الركب السريعة يكاد يبيد الخيل كما أن السيارات الضخمة ابادت قوافل الابل العظيمة التي كانت تنقل نواتج الهند والعجم والعراق من بغداد إلى دمشق . ومصر التي كانت أكبر سوق للابل قل فيها عدد آكلي لحمها وتقدمت وسائل النقل الآلية فلم تعد تربية الابل رابحة كما كانت من قبل مما اضطر العشائر الكبيرة إلى الاقلال منها . فبعد ان كان عدد مايباع منها مثلاً عند الرولة حين اصطيافها في الجولان ٣٠ — ٣٥ الفاً في سنة ١٩٢٢ هبط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عدد المبيع الى ١٢ الفاً في سنة ١٩٢٧ وإلى أقل من ثمانية آلاف في سنة ١٩٢٨ . وبينما كانت هذه العشائر لا تربي نعجةً واحدةً صار عدد الغنم لدى الرولة ٣٠٠٠٠ رأس في سنة ١٩٢٩ ولدى الاسبعة ٥٠٠٠٠ ولدى الفدعان ٦٤٠٠٠ وهكذا . ثم ان شيوخ العشائر الكبيرة هذه بعد ان كانوا ينظرون الى الزراعة وأربابها بازدراء مالوا منذ خمس عشرة سنة أو أقل الى اقتناء الضياع والارضين من أملاك الدولة وغيرها وتوفروا على احياء الخرب الداثرة وتفجير القنوات الغائرة وشرعوا يهتمون بالزراعة ويجنون ثمراتها ويتجهون الى سكنى المدن والقرى وبناء الدور وغشيان المجتمعات والمنتديات . ولو اتيح لهؤلاء الشيوخ أن يعلموا ابناءهم في المدارس الراقية كما فعل عجيل الياور شيخ شمر العراق ومجحم بن مهيد شيخ الفدعان والحاج مصطفى شويطية شيخ العقيدات ابوليل ، او لو فتحت لأبناء هؤلاء ومن يليهم مدارس خاصة على طراز (مدرسة العشائر) التي كان السلطان عبد الحميد فتحها وتثقف فيها كثير منهم امثال برجس بن هديب شيخ الاسبعة العبدة ونواف الصالح شيخ الحديديين ورمضان شلاش احد شيوخ العقيدات الابوسرايا وغيرهم ، ثم لوان وزارة المعارف عينت لكل فرقة كبيرة منهم معلماً سياراً يقيم في بيت الشعر ويشرق ويغرب معهم ويعلم صغارهم القراءة والكتابة وبسائط العلوم الدينية والدنيوية الضرورية ويحبب اليهم معيشة الاستقرار وحياة الحرث والكرث وما الى ذلك ... قلت لو تم هذا أو لو سير فيه لتعجلت حضارة البدو وحسنت أطوارهم ومعيشتهم وعمرت براريننا الغامرة وصاروا أعضاءً نافعين في جسم الامة العربية بدلاً من أن يكونوا هكذا متحفزين للشر والأذى بحكم الامية والجهالة وفقدان التوجيه والهداية .

تعريف عشائر البدو - عشائر الطبقة الاولى اهل الابل - عنزة

عنزة . — اعظم القبائل البدوية عدداً وشأناً وأمنعها جانباً وأكثرها انتشاراً في الحجاز ونجد والعراق والشام . حتى أن آل سعود ملوك نجد والحجاز منها وكذا آل صباح امراء الكويت وآل خليفة امراء البحرين . والمعروف بين البدو أن عنزة من أعقاب عنز بن وائل . ويقول السمعاني في كتاب الانساب ان عنزة حي من ربيعة ، وان نسبه عنزة بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان والله أعلم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وموطن عنزة في الحجاز في انحاء خيبر ، وكانت هجرة من وفد منها الى الشام والعراق طبيعية وبالتتابع على نحو الهجرات البدوية العديدة التي قدمنا أن سيلها لم ينقطع . وقد حدث ذلك على ما يظن في اواسط القرن الثاني عشر الهجري ، جاء أولاً أكثرها الى الشام ثم ذهب قليلها الى العراق . وأول بطن جاء منها إلى الشام الاحسنة ثم لحقهم الفدعان والاسبعة ثم الولد علي وآخر من جاء الرولة . وقد اغارت وقتئذ عنزة على وادي السرحان وشرقي الاردن وحوران ، وانتزعت السيادة من العشائر القديمة التي كانت فيها كالسرحان وبني صخر والسردية والفحيلي وغيرها وهاجمت شمر التي كانت اسبق في الانسياب نحو شمالي الشام ودحرتها شطر الجزيرة الفراتية كما هاجمت العشائر القديمة المتمكنة في انحاء حمص وحماة (وأخصها الموالي) وانتزعت السيادة منها واستقرت وتبسطت .

أما فروع عنزة فهي كما يلي : قالوا أن عنزة اعقب ولدين هما مسلم وبشر . فمسلم أبو ضنا مسلم ، وهم فخذان الجلاس والوهب . فمن الجلاس عشائر الرولة والمحلف ، ومن الوهب الولدعلي والمنابهة والحيدة . فالمنابهة والحيدة في شمالي الحجاز وغربي نجد ، الا عشيرة الاحسنة المعدودة من المنابهة فانها في الشام . وبشر ابوضنا بشر ، وهم أيضاً فخذان عبيد وعمارة . فمن عبيد عشائر الاسبعة والفدعان وولد سليمان . فالولد سليمان في شمالي الحجاز وغربي نجد والفدعان والاسبعة في شمالي الشام . ومن عمارة العمارات التي نزلت العراق وصارت تعد من عشائره .

ومن المؤسف أن العداوة منذ سنة ١٣٤٨ هـ مستحكمة بين ضنا مسلم (الرولة والولدعلي والحسنة) وبين ضنا بشر (الاسبعة والفدعان ومعهما الموالي) ولما تنجل هذه العداوة بعد . اما الشرف بين عشائر عنزة فقد قالت عنه السائحة الانكليزية اللادي بلونت التي جالت بين العشائر في سنة ١٢٩٣ هـ « ان أشرف البيوتات في عشائر البادية وقتئذ كانت ابن مزيد [الحسنة] وابن جندل [السوالمة] وابن الطيار [ولد علي] وابن هذال [العمارات] وابن سمير [ولدعلي] . ثم يأتي بعد هؤلاء ا بن صفوق [شمر الجربا] وشيوخ طي وابن هديب [المواجحة من الاسبعة العبدة] وروس المهيد [الفدعان] وابن مرشد القمصة [الاسبعة البطينات] . اما ابن الشعلان فليست شرافته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الا عرضية أخذها بالسيف . وعراقة نسب شيوخ طي وشيوخ شمر الجربا لا تقل عنها في البيوت الخمسة الأولى »وأضاف المقدم (القومندان) مولّر الافرنسي على ذلك قائلا « ومن الغريب أن هذا الترتيب لا يزال على التقريب كما كان قبل نصف قرن » .

الرولة . — أكبر عشائر عنزة عدداً وأعظمها قوةً وأجلها قدراً لدى ذوي السلطان في بلاد الشام . وهي آخر من هاجر ووصل الينا من عشائر عنزة ، ويقال أن منها بقية لا تزال في مواطنها في شمالي الحجاز . لذلك مابرحت أعرق العشائر في البداوة والجفوة واشظفها عيشاً وأرثها ملبساً ومسكناً . وقد نوه السائح الانكليزي دوختي الذي جاء في سنة ١٢٧٧ هـ بوجود الرولة في بوادي الشام وقال انها أكثر وأقوى العشائر وان شيخها وقتئذ فيصل الشعلان . ثم جاءت السائحة الانكليزية اللادي بلونت في سنة ١٢٩٣ هـ وكررت ذكر الكثرة والقوة وان شيخها وقتئذ سطام الشعلان . ويظهر ان الرولة كانت تتردد بين وادي السرحان وأطراف البلقاء وحوران وما زالت تزحف حتى استقرت في منازلها الحاضرة . وكانت حين ورودها استظهرت على جميع عشائر البادية والمتحضرة واستطالت الى فرض الاتاوات (الخاوة) على القرى المتطرفة وأقلقت الحكومات التي في هذه الديار . وقد كان الرولة خصوم شمر ابن الرشيد استخلصوا منهم في سنة ١٣٢٨ هـ وادي السرحان وواحة الجوف وقريات الملح التي فيه وظل الشيخ الحالي نوري الشعلان مدة مديدة يتقاضى أربعة مجيديات عن كل حمل ملح ينقل إلى جبل الدروز وحوران وشرقي الاردن فجمع من ذلك ثروة كبيرة . ولكن في سنة ١٣٣٧ هـ استردها الشمريون منهم عقيب معارك شديدة ثم عادوا هم في سنة ١٣٤٠ هـ واستردوها وظلت في أيديهم الى سنة ١٣٤٤ حيث اضطروا الى التخلي عنها الى الملك عبد العزيز بن السعود بعد أن أزال دولة آل الرشيد واستولى على الحجاز . ويقدر عدد الرولة مع احلافها بـ ٤٠٠٠ بيت وعدد مواشيها بما لا يقل عن ١٢٠٠٠٠ بعير و ١٠٠٠ فرس و ٣٠٠٠٠ شاة ، ولا يخلو أي بيت فيها من بندقية وعند الشيخ نوري عدة سيارات ورشاشات ، وقد افترق منها نحو ٤٠٠ بيت وهم فرقتا الدغمي والمشهور برئاسة درزي بن دغمي وفرحان بن مشهور وصاروا وهابيين في سنة ١٣٤١ ودخلوا في الجوف .

(يتبع) وصفي زكريا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net